بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ليس بعد الشعر الجاهلي إلا الإعجاز
حقائق مَنْسِيّة يجب أن تُكرَّر لتُذكر

أجمعت جماعة أهل العلم بالشعر في الأمة أن الشعر الجاهلي بلغ ذروة كمال البيان العربي وأنه لن يكون هناك شعر بعده يفضله أو يساويه هذا إجماع أهل العلم بالشعر في الأمة من يوم أن نزل فينا الكتاب إلى يوم الناس هذا . وزاد المرحوم محمود شاكر أن الشعر الجاهلي بلغ ذروة البيان الإنساني ، وليس البيان العربي فحسب ، وأنه لن يأتي جيل بعد جيل المبعث يفْضُل هذا الجيل في البيان أو يساويه . وأن الذين عرفوا بالبلاغة بعد زمن النبوة ينكرون أن يُدّعَى عليهم أنهم يسامونهم . ويقولون إنما نجري بما سبق إلينا من أعراقهم ، وهذه حقيقة تاريخية يجب أن تكون معلومة علمًا ظاهرًا لأجيالنا ، وأن كل تشويش حول هذه الحقيقة لم يصدر عن علم لأنها ليست وصفًا نظريًّا لشيء غائب . وذلك لأن الشعر الجاهلي بين أيدينا ، والدراسة الواعية الصادقة اليقظة ممكنة ، والوصول إلى تأكيد هذه الحقيقة مُمْكن ، والواجب على أهل العلم إذا قرؤوا مثل هذا أن يعودوا إلى الشعر ، وأن يدرسوه وأن يُدَقِّقُوا وأن يتأملوا وأن يتغلغلوا وأن يطول الدرس وان يطول التأمل والتدقيق والتغلغل حتى تُصبح الحقائق التي يقرؤونها في الكتب حقائق عملية ثابتة ومقنعة ، ولم تجتمع الأمة على القول بأن الشعر الجاهلي أفضل بيان العرب وليس فوقه

إلا كلام الله سبحانه إلا معتمدة على كلام أهل العلم بالشعر . والشعر علمٌ لـه رجاله هم أهل الرأي فيه وهم أهل الفتوى فيه ثم إن هـذا العلـم بالشـعر يُنـال بالمدارسة والمراجعة والمفاتشة والتدبر والنظر ولم يَخْل جيل من أهـل العلـم بالشعر ، ثم إن الفرق بين شعر الجاهليين وشعر العصور بعـدهم يظهـر لمـن درس وجدّ وانقطع وراجع وصبر ظهوراً كظهور الشمس لاتلتبس علـى مـن لـه عين ، وأنا أُحدِّثك عن تجربة وأقول إن القَلَم خير من يعـين طالـبَ العلـم في هذا الشأن ، وأعني التحليـل الـدقيق للجمـل والتراكيـب ، وللكلمـات وأحـوال الكلمات ، وطول الصبر والمراجعـة في ذلـك ، وقـد رأيـت القلـم يتجـاوز أن يكون آلة كتابة تكتُب ما يُملى عليها إلى أن يصير باحثًا معينًا لحامله يكشـف له غوامض المعرفة ، وما من مسألة أو شعر قرأته ووعيته وراجعته ثم كتبتـه إلا وجدت كتابته تزيد في علمي به ، وتزيد في وَعْيـي بـه ، وتُخـرج لـي مـن باطنه شيئًا لولا هذا القلم ما خرج ، وكأن سِنّ القلم يفتح لي مبهمات كثيرة من المعرفة ، وقد علمني هذا شيئًا من السرِّ الإلهي في قولـه تعـالى في أول سـورة القلم ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ ، ولو كان القلم لا يتجاوز أن يكـون آلـة لتسجيل المعرفة المرموز إليه بحرف (ن) لما كان له هذا الجلال الـذي يؤهلـه لأن يُقسم ربنا به وأن تُسَمّى سورة في اللوح المحفوظ باسمه ، والذي وقـع في نفسي أن القلم يكشف لك بعض وجوه العلم كمـا يعلمـك الحـرف (ن) ، لأن الحرف (ن) هو عَتَبَةُ الدخول إلى عالم العلم ، لأنـه يشـير إلى القـراءة . وبعـد دخول العَتَبَة وإمساكك بالقلم تبدأ في التعَلُّم الذي ليس تحصيلاً فحسب وإنما هو أيضًا إنتاج للمعرفة .

قلت إن إجماع الأمة على أن الشعر الجاهلي هو ذِرْوَة كمال البيان العربـي كان معتمداً على حقائق ذكرت منها واحدة هي إجماع أهـل العلـم بالشـعر ، والثانية هي أدَلُّ وأقْطَع ، وهي أن هذا الجيل من بين أجيال البشر وجّه القـرآن إليه المطالبة بأن يأتي بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ، وجعل القرآن عجز هذا الجيل عن ذلك حُجّةٌ على الأجيال مـن بعـده ، وحجـة علـى

غير أصحاب اللسان ، ولو كان الحق جل وتقدّس يعلم أنه سيأتي جِيلٌ يَفْضُلُ هذا الجيلِ ما كان عجزه حجة على عجز الأجيال من بعده .

ثم إن القرآن الكريم طالبهم بأن يأتوا بسورة من مثله سواء كان الذي يأتون به من كلامهم ، أو مما في صدورهم مما حفظوه من شعر من قبلهم ، وهذا يعني أن الذي حفظوه من مأثور كلام آبائهم كالذي يقولون ليس بعده من كلام الأجيال أفْضَلُ منه وليس فوقه إلى الكلام المعجز ، ولو كان هناك بيان آخر يمكن أن يأتي في زمان آخر أعلى من كلامهم الذي يقولونه أو الذي يحفظونه لانتقص هذا التحدي ولم يعد عجزهم عنه دليلاً على إعجازه ، وهذا يوجب علينا أننا إذا قرأنا هذا الشعر ودَرَسْنَاهُ وكلمنا فيه أجيالنا أن تكون هذه الحقيقة بين أعيننا وأن نُعْطي هذا الشعر حقَّه من العناية والرعاية في ضوء هذا الواقع التاريخي وهذه الحقيقة الفريدة في تاريخ الأمم كما كان يقول المرحوم محمود شاكر ويقول أيضًا إن دراسة الشعر الجاهلي في غيبتها كأنها دراسة للشعر الجاهلي في غيبة الشعر الجاهلي ، وهذا القول يشبه قولاً لعبد القاهر في هذه القضية من وجهها الآخر ، وهو أنه يرى أن المدخل الذي ليس لنا مدخل للإعجاز سواه هو الشعر الجاهلي وأن دراسة الإعجاز في غيبة الشعر الجاهلي هي دراسة للإعجاز في غيبة الإعجاز ، وكلام القمم العالية يَتَنَاغى وإن تباعد الزمان والمكان .

والشعر الجاهلي ليس شعرًا واحدًا ، وليس كله على قدم سواء ، وإنما منه ما يبلغ هذه الذروة ، ومنه ما يبعد عنها ، وهذا البعد مختلف جدًّا وأن من شعر الشاعر الواحد ما يبلغ هذه الذروة وما يدانيها وما يبعد عنها . والشعراء الأربعة الكبار الذين يُمثِّلون الطبقة الأولى من طبقات ابن سلام هم أقرب الشعراء إلى هذه الذروة ، وتتميّز دواوين هؤلاء الأربعة بقرب التفاوت في قصائدها ، فإذا كانت « قفا نبك » ، أفضل شعر امرئ القيس فإن المسافة التي بينها وبين « ألا عم صَباحًا أيُّها الطَّلَل البَالِي » ليست بعيدة ، وإذا كانت « أمِنْ أُمّ أوفى دمنةٌ لم تكلّم » مُعَلَّقة زهير المختارة من شعره فإن المسافة التي بينها وبين : « صَحَا

القَلْبُ عن سَلْمَي وأقْصَرَ باطله» ليست بعيدة وكذلك المسافة بين دواوين هؤلاء الأربعة ليست بعيدة ، فالفرق بين ديوان النابغة وديوان زهير ليس بعيداً وكذلك الفرق بين ديوان الأعشى وامرئ القيس ، وإذا قرأت قصيدة لواحد منهم قراءة تحليل وتدقيق وتمييز قَرَّبَتْكَ إلى ديوانه كله لأن المذهب واحد ، ومعرفة مذهب الشاعر أمْرٌ مهمٌّ جداً وطريقهُ وعْرٌ وليس جداً ، وحين تفتح القراءة في قصيدة ترى البيت يفتح شهيتك إلى البيت الذي يليه حتى إنك لترى الشعر مُمْسِكًا بك حريصًا على أن يسقط لآلئه في فؤادك لؤلؤة لؤلؤة .

اقرأ قول الأعشى في قصيدة من مألوف شعره ومن مألوف مدائحه والتي سلكت طريقه المألوف في بناء مدائحه قال يمدح هوذة بن علي الحنفي :

أتَشْفِيك (تَيَّا) أم تُرِكْتَ بِدَائكَ ... وكانت قَتُولاً للرجال كذلك

وأقْصَرْتَ عن ذكر البطالة والصّبى ... وكانت سَفاهًا ضَلّةٌ من ضلالك

وما كان إلا الحيْنَ يوم لَقيتَها ... وقطْعَ جديد حَبْلَها من وصالك

وقامت تُريني بعد ما نام صُحْبَتي ... بَيَاض ثناياها وأسْوَدَ حالكا

وَيَهْمَاء قَفْرٍ تَحْرَج العينُ وَسْطها ... وَتَلْقَى بها بَيْضَ النَّعامِ ترائكا

يقولُ بها ذو قُوَّةِ القوم إذْ دَنَا ... لصَاحبه إذ خاف مِنْها المهالكا

لك الوَيْلُ أفْشِ الطَّرْفَ بالعين حولنا ... على حَذَرٍ وأبْقِ ما في سقائك

وَخَرْقٍ مخوفٍ قد قَطَعْتُ بجسْرةٍ ... إذا الجِبْسُ أعْيَى أن يَرُومَ المسالك

قطعتُ إذا ما الليلُ كانت نجومُه ... بَوَانِيّ في جوِّ السماء سوامكا

بأدماء حُرْجُوج بَرَيْتُ سَنَامَهَا ... بِسَيْرى عليها بعدما كان تَامِكَا

إلى أن قال :

إلى هَوْذَةَ الوهَّابِ أهْدَيْتُ مِدْحتي ... أُرَجِّي نَوالا فاضلاً من عطائك

تَجَانَفُ عن كل اليمامة ناقَتِي ... وما قَصَدَتْ من أهلها لِسِوَائك

أَلَمّــتْ بــأقوام فعافَــتْ حياضَــهُم قلوصي وكان الشَّرْبُ منــها لمائــك

فلمَّــا أتَــتْ آطــام جَــوٍّ وأهْلَــه أُنيخَــتْ وألقَــتْ رَحْلَهــا بفَنائــك

ولم يَسْعَ في الأقوام سَــعْيَكَ واحِــدٌ ولــيس إنــاءٌ للنَّــدى كإنائــك

سَمِعْتُ برَحْبِ البارع والجود والنّدَى فأدليْتُ دلــوي فاسْــتَقَتْ برِشَــائك

راجع الشعر واجعله لك وجهًا لوجه من غير شرح شارح ولا حذلقة ناقد يزعم أنه أعلم بالشعر منك وأنه يدلك على خبايـاه ، واعلـم أن أكـرم الخبايا ما كشف حِسُّك لك غطاءها نعم تحتاج إلى شرح الغريب وكلنا يحتـاج إليـه وأن كلمة « تَيَّا » اسم إشارة أراد بها الصاحبة وأنه لما أشار إليها باسـم الإشـارة ولم يذكر اسمها أشعرك أنه كان يروم أن يبتعد عنها وعن ذكرها . ثم غلبتـه ، وقوله « وكانت قتولا للرجال » أراد حُسْنَها ودَلَّها ودلالهـا وأنهـا ليسـت لعوبًـا وإنما هي قتول ، مبالغة من القتل ثم راجع قوله « وأَقْصَرْتَ عـن ذكـر البطالـة والصبى » وأراد بالبطالة الاشتغال بالصبوات ، ثـم راجـع مـا ترتـب علـى هـذا النزوع عن البطالة والصبى وكيف ضَلَّ ، وسَفِهَ ورجـع إليـه وهـو لا يـريـده وما وراء ذلك من اقتدار هـذه القتـول ونقضـها عـزائم مـن رجـع عـن البطالـة والصبى . ثم راجع النفي والاستثناء في قوله « وما كان إلا الحينَ يوم لقيتهـا » والحين الهلاك وكيف لاءم لقاء القتـول ، ولاحـظ التجريـد في قولـه « لقيتهـا » بضـمير المخاطـب ، واليَهْمـاء الأرض المطموسـة المعـالم « وتَحْـرَج العـين وسطها » تتحيّر وتُدْهش ، وتلقي بها بيض النعام ترائكا » كناية عـن أنهـا غـير مسلوكة ، والترائك جمع تريكة وتريكة البيض ما بقي منه بعد خروج أفراخـه وهو لا يعود إليه أبدًا وكان أبو العلاء يقول تركت الشعر تـرك الفـرخ تريكتـه يعني أنه لن يعود إليه أبدًا ثـم يعـود إليـه « وذو قـوة القـوم » صـاحب قـوتهم وقائدهم وسيدهم ولم يسوِّدوا إلا ذا قوة من العقل والفهم والبصيرة وهـو هنـا يحذر من هذه المهامه المطموسة « وأَفْشِ الطـرف بـالعين » أي أحسـن النظـر حولنا حتى لا يداهمنا شرٌّ « وأبق ما في سقائك » لأنه ليس فيها ماء « وخـرق

مخوف» معطوف على يهماء من عطف جملة أبيات قيلت في غرض على جملة أبيات قيلت في غرض آخر وواوُ رُبَّ هذه من أدق وألطف روابط المعاني ومعاقد الكلام وإمساك بعضه ببعض وحاول أن تصل إلى فقه الشعر المتمثل في ربط حكاية (تيا) وقصته معها ، وقصته مع اليهماء وقصته مع الخَرْق واعلم أن العطف لا يكون إلا إذا وجد رحم بين المعطوف والمعطوف عليه ، وكلمة العطف دالة بدلالتها اللغوية على هذه الرحم . وهذا التعاطف والتراحم بين المعاني وتقول لنا : اهتدوا أنتم إلى هذا بإلطاف النظر ومزيد التدبر ، والجَدَةُ الناقة الصلبة ، والجِبْس الجبان الضعيف «وأعْيَى أن يَروُم المسالك» عجز عن أن يروم قطعها وأنه لم يفكر في ذلك كما قال امرؤ القيس: «وبيضة خِدْرٍ لاَيُرامُ خباؤها» أي لا يفكر أحد في أن يحوم حول خبائها ، كل ذلك بيان للصعوبات ، التي اجتازها ليصل إلى الممدوح ، ولا يتجشم مثل الأعشى هذه الصعوبات ليصل إلى الممدوح إلا إذا كان الممدوح عظيم القدر ، وأن عطايا هذا الممدوح تتجاوز قيمتها المادية ، لأن قيمتها الحقيقية أنها زَيْنٌ لمن يأخذها ، وعطايا الكرام تكريم من كريم إلى كريم وهكذا يجب أن يُفهم الشعر وَمَا كُلُّ العطاء يزين ، ولم يمدح الشاعر ليصيب المال وإنما يمدح الرجال الجديرين بالثناء وقد قال البحتري هذا صريحًا :

ولم أمْـــدَحْ لأرضـــيه بشـــعري لئيمًـــا أن يكـــون أصـــاب مـــالا

«والنجوم البواني هي النجوم الثابتة في جو السماء والسوامك العالية والأدماء الناقة البيضاء ، والحرجوج طويلة الظهر والسَّنام التّامِك هو المرتفع المكتنز ، «وتجانف عن كل اليمامة ناقتي» حادت عنها فلم نقصد إلى أحد فيها ، وألمت بأقوام نزلت بهم ولكنها كرهت حياضهم أي ماءهم».

هذا الشعر كما ترى آخذ بعضه ببعض وممسك بعضه ببعض وآخذ بك أيها القارئ وممسك بك ، وبلاغته كما يشير الشيخ عبد القاهر ليست راجعة إلى حُلي البديع من استعارات وجناس إلى آخره وإنما هي راجعة إلى قُدرة فريدة في استغلال أحوال اللفظ من تقديم وتعريف وتنكير وحذف وذكر إلى آخره

وأن استغلال هذه الأحوال وإفعامها بالمعاني والخواطر لم يُصِبْ أحدٌ فيها كما أصاب أصحاب الكلام الأول من العرب والأعراب ، الذين وصفهم الشيخ بأنهم قوم طبعوا على البلاغة وأوتوا فيها حظا هم به أفراد ، حتى إن البحتري وهو أفضل المحدثين كما يفهم من كلام عبد القاهر كانت إصابته في التأليف والتركيب وإشباع أحوال اللفظ بالمعاني تأتي الواحدة بعد الواحدة وبينهما شعر كثير يخلو منها ، ولم يهْجمُ عليك مما يروق ويروع من باب التأليف والتركيب إلا ما كان من شعر هؤلاء الفحول» .

وكلام عبد القاهر الذي يقطع الناظر فيه أنه يَنُصُّ على خصوصية أساسية من خصائص الشعر الجاهلي هو قوله : ومنه ـ يعني من الكلام ـ ما أنت ترى الحسن فيه يَهْجُم عليك منه دَفْعةً ، ويأتيك منه ما يملأ العين ضَرْبَةً حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل وموضعه من الحذق وتشهد له بفضل المُنَّة وطول الباع ، وحتى تعلم إن لم تعلم قائله أنه من قيل شاعر فَحْل ، وأنه خرج من تحت يد صناع وذلك ما إذا أَنْشِدْتَه وضَعْتَ فيه اليد على شيء فقلت هذا هذا ، وما كان كذلك فهو الشعر الشاعر ، والكلام الفاخر ، والنمط الشريف ، والذي لا تجده إلا في شعر الفحول البُذَّل ، ثم المطبوعين الذين يُلّهمون القول إلهامًا»[1] ذكر هذا وهو يتكلم عن المزية في النظم ، وأن هذه المزية التي في النظم كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وَيَنْضَمُّ بعضُها إلى بعض حتى تكثر في العين وضرب مثلا لذلك بشعر البحتري وأنت لا تكبر شأن صاحبه ولا تقضي له بالحذق والأستاذية وسَعَة الذرع وشِدّةِ المنَّة حتى تستوفي القطعة، وتأتي على عِدَّة أبيات ثم قابل ذلك بحسن النظم الذي يَهْجُم عليك دفعة ويأتيك منه ما يملأ العين ضَرْبة ،وهذا قاطع في أنه يعني الشعر الجاهلي، وأن هذا الكلام الذي قاله في هاتين الصفحتين فتح به بابًا لدراسة الفرق بين شعر القدماء وشعر المحدثين وبيان الخصائص الغالبة على شعر المحدثين والخصائص الغالبة على شعر القدماء وهذا الموضوع مع أهميته لم ندرسه

(١) دلائل الإعجاز ص ٨٨ ، ٨٩ .

دراسة علمية محددة . وكلامنا فيه كلام عام ؛ وهو أصل لدراسة تطور أساليب البيان وهذا من المسكوت عنه ، وقد حاولته واقتربت منه في بعض مقدمات كتبي ، ولكنني وجدته شديد الغموض وكنت قد تهيأتُ لأن أقف عنده ثم شغلت بما شغلت به وأرجو أن يكون منا صادق صدوق يدخل هذا الباب ويعالجه بروح علمية جادة .

وأعود إلى ما عَزَمْتُ على كتابته في هذه المقدمة فأقول كتبت عن الشيخ عبد القاهر وسأكتب الآن عنه وكتب غيري في زماني وقبل زماني وسيكتب من بعدنا عنه . لأن العمل العلمي الخصب عطاؤه مفتوح وقد أجمع العلماء بعد عبد القاهر على أنه واضع بلاغة اللسان العربي وأضاف محمود شاكر أنه واضع بلاغة اللسان البشري ، وكل كاتب له اهتماماته وينظر إلى أي عمل علمي أو أدبي من جهة هذه الاهتمامات وهو واجد لا محالة ما يروم ، إن اجتهد وصبر وصدق .

والذي أريد الإشارة إليه الآن هو أن علماءنا قبل عبد القاهر ذكروا سؤالاً هو أن التوراة كلام الله والإنجيل كلام الله وكل كتب الله التي أنزلها على أنبيائه هي كلامه فلماذا كان القرآن وحده هو المعجزمن بين كتب الرسل الذين منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص ، وأجاب علماؤنا عن هذا السؤال جوابًا مختصرًا ومُجْملاً خلاصته أن اللغات التي أنزل الله بها كتبه قبل القرآن لم يكن فيها من القدرات على الإبانة وتنوع هذه القدرات واختلاف هذه القدرات ما يؤهلها لأن ينزل بها كلام معجز ، وهذا معناه أن الإعجاز يقتضي لغة متنوعة في طرائق إبانتها تنوعًا تصيب به الحسن والأحسن وتتجاوز الأحسن حتى تصل إلى البيان القاطع للأطماع والقاهر للقوى والقدر ، وهذا قاطع في أن العربية زمن نزول القرآن كانت قد بلغت من الرقيّ والسمو مبلغًا يؤهلها إلى ذلك وأن بلوغ المتحدثين بها زمن المبعث مبلغ كمال البيان العربي واكبه وجاراه بلوغ لغتهم مبلغ الكمال اللغوي ، ولم يكن لعبد القاهر في كتابه الثاني والأخير شاغل يشغله عن الكشف عن هذه الطاقات المُبينة في هذا اللسان الشريف الذي وصفهُ ربنا بأنه لسان عربي مبين وكأن هذا الوصف أشار إلى

تميزّهُ عن الألسنة الأخرى وأن الله سبحانه وتعالى أنزل به كلامه المعجز لهذه الإبانة التي تَمَيَّز بها ولما بدأ الشيخ عبد القاهر حديثه في النظم قال «اعلم أن ههنا أسراراً ودقائق لا يمكن بيانها إلا بعد أن نقدِّم جملة من القول في النظم فأشار بهذا إلى أن المهم في هذا الكتاب هو الأسرار والدقائق ، وأن القول في النظم مقدمة لهذه الأسرار والدقائق ، وهذه الأسرار والدقائق هي القول في التقديم والحذف وفروق الخبر والقصر والفصل والوصل وكل باب من هذه الأبواب هو كنز من كنوز ومسائل الإبانة وله دلالات جمّة لم يثرها أحد قبله ، وكلها ليست دلالات ألفاظ وإنما هي دلالات أحوال ألفاظ ، ودلالات الألفاظ محدودة تتناهى ودلالات أحوال الألفاظ غير محدودة ولا تتناهى وإنما هي خواطر وأطياف وسوانح تجري في نفوس أصحاب البيان فيثيرها سياقهم ويَجْعَلُ هذه الأحوال حاملة لها ومبلغة لها . وهذا من أغمض ما في البيان ومن أدق وأجل ما فيه لأنه كامن في أحوال الألفاظ لا يَهيجُه من تلك الأحوال إلا قوم طبعوا على البيان . فكلمة رجل لها معنى محدود والتنكير فيها له معان غير محدودة ، ويثيرها السياق وبَرَاعَةُ اللسان الناطق بها فقد يكون التنكير للتعظيم وقد يكون للتحقير ، وقد يكون للتكثير وقد يكون للتقليل . ولاحظ أنَّهُ يفيد الشيء وضده ثم إن كُلَّ معنى من هذه المعاني له درجات وأحوال وأطياف تجد للتنكير في قوله تعالى ﴿ **مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ مذاقًا ودلالات لا تجد هذه المذاقات وهذه الأحوال نفسها في التنكير في قوله تعالى : ﴿ **وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ** ﴾ وإنما تجد أحوالا أخرى ومذاقات أخرى ولو جمعت استغلال امرئ القيس لهذه الخصوصية المُبينة وكيف صرَّفَها لسانُه وكيف أجرى فيها من دقائق حسِّه ودقائق خواطره وأحواله ومشاعره لو جمعت ذلك بوعي ودرسته بوعي ستجد فيضًا من دلالات هذا التنكير وقل مثل ذلك في التقديم وفي الحذف والفرق بين الإخبار بالفعل والإخبار بالاسم . ولا يُدْهِشك هذا لأن هذه هي الوُكناتُ التي أسْكنَ فيها الشعراء أحوالهم وأطيافهم ومقاصدهم والتي بها وحدها يفضل شعر شعرا .

وكان عبد القاهر بصَبْره وصِدْقِه وانقطاعه مُلْهمًا في إدراك خفايا هذه الأحوال ، وكان يسمع ما في الكلام من همس ويدرك ما فيه مما يخفى خفاء مَسْرَى النّفس في النفس وهذه عباراته التي أنطقته بها معاناته في البحث عن مواطن الإبانة الخفية في هذا اللسان الذي وصفه ربنا بأنه لسان عربي مبين ، لا شك أنك تعجب حين ترى عبد القاهر يُنْطق كلمة إنّ بالمعاني التي أنطقها بها لما غفل عنها الكندي المتفلسف واعتبرها حشوًا في كلام العرب وكيف انثالت معانيها على عبد القاهر ، لما جمع مواقعها في الكلام وأخذ يتدبرها ولما وجد الكلام فيها اتسع قطعه وانتقل إليها إذا اتصلت بها ما الزائدة ، ففتح بها مع ما الزائدة بابًا من المعاني لا حدود لها . وأعجب من هذا حين ينطق عبد القاهر الحذف وليس الكلام المنطوق ، عجيب أن ترى الشيخ وهو يستمع إلى منطقة الفراغ من الكلام . ويجد في هذا الصمت أو في هذا الفراغ أو في هذا الحذف لغة هي أنطق من الذكر ، ويقول لك « تراك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تبن »، وراجع هذا الكلام الغريب وفكر في كلمة أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تبن وكيف يكون الصَّمْتُ أبلغ من الكلام والعدم أوفر من الوجود ، ولم أعرف أحدًا قبله ولا بعده استخرج من أحوال اللفظ مثل ما استخرج . وأحوال هذه الألفاظ هي جزء من مراده بمعاني النحو وهي الوجوه والفروق كما سماها ، ولما استخرجها بهذا الجد وهذا السخاء بت الحكم بأنه لا مرجع لفضل كلام على كلام إلا بها ، وأن فضل شاعر على شاعر هو سخاء طبعه الذي يشبع هذه الأحوال بالمعاني الخفية وقياس هذه المعاني التي في هذه الأحوال قياسًا دقيقًا وبيان ما بينها من فروق هو ذاته بيان ما بين الشعر من تفاوت ثم إن عطاء هذه الأحوال في الكتاب العزيز ذلك العطاء الذي لا ينفد هو وجه إعجازه البلاغي .

والشيخ بهذا يضع منهجًا لتحليل الشعر ونقده ، ويقول لنا إذا أردتم أن تعرفوا الشعر وفضله على غيره أو فضل غيره عليه فليس أمامكم إلا الألفاظ التي عبر بها الشاعر فراجعوا أحوالها من التقديم والتعريف والإخبار بالفعل

والإخبار بالاسم ومواقع الوصل والفصل إلى آخر ما بني عليه الشعر ، واجتهدوا في معرفة المخبآت من المعاني والخواطر والغرائز والشيم والأفكار والمقاصد المخبوءة ليست في الألفاظ وإنما في أحوال الألفاظ فالذي في الألفاظ هو الدلالات الظاهرة التي تتبادر معانيها إلى كل دارس للشعر أما الذي في أحوال الألفاظ فهو الأسرار والخفايا التي لها قوم هدُوا إليها ودَلُّوا عليها ورُفعت الحجب بينهم وبينها .

وكنت دائمًا في مقدمات كتبي أنبه إلى بعض ما يجب التنبيه إليه في حياتنا لأني لا أحب لنفسي ولا لطلابي أن نعيش بمعزل عن الذي عليه أحوال البلاد والعباد ، لأن العلم والدرس والطالب والأستاذ والجامعة والقرطاس والقلم كل ذلك إنما هو لصلاح وإصلاح أحوال البلاد والعباد ، والواقع الآن لا يحتاج إلى أحد يُنَبّه على الذي فيه لأنه ظاهر كالشمس في رائعة النهار وأرى السفينة حيرى في موج كالجبال . وفي أعلاها وأدناها أكثر من تسعين مليونًا ، وأخشى أن تكون بوصلة السلامة قد تاهت من الملاح . والعاصفة هوجاء وليس في أيدينا إلا أن نسأل الله السلامة للبلاد والعباد . ولم أعرف ولم يعرف غيري ولم يعرف التاريخ أن أحدًا يحب وطنه ويقهر أهله ، أو يقتلهم أو يُفزّعهم ولا أعرف لحب الوطن إلا معنى واحدًا وهو حب بنيه كل بنيه عالمهم وجاهلهم وغنيهم وفقيرهم مهما اختلفت بهم المذاهب والمنازع . والمسؤول الذي هو أهل للمسؤولية هو الذي يجمع الكل ولا يعلن عداءه لفريق بسبب اختلاف في المذهب السياسي أو المذهب الديني أو التوجه لأن الصدق في حب البلاد لا معنى له إلا أن أسع كل من في هذه البلاد حتى الحجر والمدر . والمخطئ يقدم للقضاء الذي يحرص المسؤول الرشيد على أن يظل بعيدًا عن الشبهات لأنه دار الأمن والأمان لكل من يعيش على الأرض يأخذ حق أضعفنا من أقوانا ، المخطئ يقدم إلى هذا القضاء ولا تذر وازرة وزر أخرى ثم إن المخطئ يعاقب على قدر خطئه . « وجزاء سيئة سيئة مثلها »، فإذا زدنا في عقابه مقدار حبة من خردل صار الظالم مظلومًا وهذا هو العدل وهذه

هي الرحمة ، لا يعاقب إلا من أساء وجزاء سيئة سيئة مثلها وليس في عدل الأرض ولا في عدل السماء أن يؤخذ بريء بإساءة مذنب ولا أن يُضّطهد فريق من أساء ومن لم يسئ ، ثم إن الناس أحرار فيما يختارون من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ولا إكراه في الدين فكيف بالمذاهب السياسية والأفكار السياسية ، من شاء أن يكون يساريًا فليكن كما أراد ومن شاء أن يكون اشتراكيًا فليكن كما أراد ومن شاء أن يكون ليبراليًا فليكن كما أراد ومثل هؤلاء جميعًا من شاء أن يكون سلفيًا أو إخوانيًا فليكن كما أراد . شيء واحد هو الذي لا يكون وهو من أراد أن يضرنا فلا يمكن أن يكون كما أراد ، وسيدنا رسول الله ﷺ قال لنا أُمِرْنا أن نقبل من الناس ظواهرهم وأن نترك لله سرائرهم والعدل والرحمة مأمور بهما من الله مع كل أنبيائه مامن نبي إلا أمر بالعدل ونهى عن الظلم ونهى عن القمع ونهى عن التخويف والتهديد ونهى عن الاستبداد وفي القرآن سورة اسمها سورة الشورى وفيها الأمر الحاسم بالمشورة والنهي القاطع عن الاستبداد والمهم أن العلماء أجمعوا على أن كل ما في هذه السورة من وحي الله لكل أنبيائه لأن الله افتتحها بقوله سبحانه : ﴿ **كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ** ﴾ وهذا صريح في أنها من وحي الله إلى الذين من قبله ، ثم إن من مصلحة البلاد والعباد البعد عن التنازع والصراع وانصراف الكل نحو العمل الصحيح المدروس لتقدم البلاد والعباد . كان يعيش على أرضنا أيام عزنا ومجدنا المسلم والمسيحي واليهودي والمجوسي والوثني والملحد والفاجر والماجن وعجيب جدًا ما تقرؤه لأبي حيان التوحيدي من خبر عشرة من رجالنا ليس فيهم اثنان على مذهب واحد وإنما هم سني وشيعي وملحد وصابئ ويهودي ومسيحي وماجن وكانوا يجتمعون يتذاكرون الأدب والأخبار في وُدٍّ وسماحة وصفاء وكان من يراهم لا يمكن أن يتصور بينهم هذه الخلافات وأغرب من كل هذا أنه كان منهم الخليل بن أحمد هذا شأن العقول الراشدة ولا يضيق بالخلاف إلا الأغبياء والويل للناس إذا ساد فيهم الأغبياء ، والناس من حولنا يعيشون على الوجه الذي كنا عليه منذ أربعة عشر قرنًا .

ترى كل المذاهب وكل الديانات وكل الاتجاهات تعيش في سلام . والمهم أن الكل يحرص على الكل . وأن من يذنب يؤاخذ بذنبه من غير زيادة . لا أقول انظر إلى الغرب الذي قطع في التقدم مسافات وإنما انظر إلى الهند التي لا تستطيع حصر الديانات والمذاهب التي تعيش فيها والكل يعمل من أجل الكل ، وحب الأوطان لا معنى له إلا حب الذين يعيشون على هذه الأوطان والذي يقتل ناسه ويروي الأرض بدماء أبنائها ليس محبًّا للوطن وإنما الذي يحمي بني وطنه وإن خالفوه .

وماحب الديار شغلن قلبي ولكن حب من سكن الديار

والشكوى من الزمان هي من عادة العلماء لشدة رغبتهم في أن يروا بلادهم في الصورة التي يحبون أن يروا بلادهم عليها .

وقد شكا الشيخ عبد القاهر من زمانه وقال « ثم إنا وإن كنا في زمان هو على ما هو عليه من إحالة الأمور عن جهاتها ، وتحويل الأشياء عن حالاتها ونقل النفوس عن طباعها ، وقلب الخلائق المحمودة إلى أضدادها ودهر ليس للفضل وأهله لديه إلا الشر صرفًا والغيظ بحتًا وإلا ما يدهش عقولهم ، ويسلبهم معقولهم ، حتى صار أعجز الناس رأيًا عند الجميع من كانت له همة في أن يستفيد علما أو يزداد فهمًا أو يكتسب فضلاً أو يجعل له ذلك بحال شغلاً » .

وقد علق المرحوم محمود شاكر على هذا بقوله : إن كان عبد القاهر في زمانه يقول ما يقول في هذه الفقرة فماذا نقول نحن في زماننا هذا ؟ وأقول إذا كان محمود شاكر يقول ما يقول في زمانه فماذا كان يقول لو تأخر به الأجل ورأى ما نرى مما لم نر مثله قط ، ظني أنه كان سيقول :

فبِتُّ والغُولُ لي جَارةٌ فياجًارتا أنت ما أهولا

ولاحظ أن العلماء انقطعوا في دروسهم وفي مطالعتهم وفي معاملهم لشيء واحد هو خير بلادهم ولو كانوا يبغون الثروة ما شغلوا بالعلم . وجهات الثروة كثيرة وأوسعها في أيامنا هذه أن يكون طبَّالا لأهل السلطان وخصوصًا أن كادر

الطبالين ارتفع جدًّا وكادر خدم السلطان في كل موقع ارتفع جدًّا ، وكلام الشيخ عبد القاهر في هذه الشكوى فيه نفاذ عجيب فإحالة الأمور عن جهاتها معناه أن يكون الفشل نجاحًا وأن يكون خراب البلاد إنجازًا وحماية العدو سياسة وقتل المواطن كياسة .

ومعنى نقل النفوس عن طباعها أن ترتفع الرؤوس بالنفاق والخساسة والكذب ، وقلب الخلائق المحمودة إلى أضدادها أن يصير النصح تحريضًا والحرص على البلاد والعباد تهمة ويصير أهل الصدق متهمين ويصير المنافقون والكذبة من الناجين وأهلُ العلم إرهابيين واللصوصُ مواطنين شرفاء .

ونسأل الله سبحانه أن يحفظ البلاد والعباد وأن يلطف بنا من أجل الأطفال الرُّضّع والصالحين الرُّكّع وأن يولّي أمورنا خيارنا وألا يسلِّط شر البريّة على خير البريّة ، وألا يسلِّط جُهالنا على علمائنا ، وألا يسلّط أغبياءنا على أهل البصيرة منا وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه وأن يرينا الباطل باطلاً وأن يرزقنا اجتنابه وأن ينصر من استنصره وأن يعين من استعانه وأن يقطع دابر القوم الذين ظلموا ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المعادي الجديدة في ليلة الثلاثاء

٢٨ من ربيع الأول ١٤٣٨هـ

٢٧ من ديسمبر ٢٠١٦م

محمد محمد أبوموسى

عضو هيئة كبار العلماء